من تراب (٢٣٣) الطريق!

أستاذ الجيل (*) وعبادة الأشخاص !

يعرف جيلنا وربما بعض مَنْ بَعْدَنَا ــ يعرفون أحمد لطفى السيد بلقب أستاذ الجيل، كان معاصرا للقامات العالية جدا أمثال عبد العزيز فهمى وسعد زغلول وأترابهما ومن جاءوا بعدهما، وعاش حتى نيف على التسعين (١٨٧٢ ــ ١٩٦٣)، فكان يقول : " لقد ظلمنى عمرى " .. يقصد بأدبه الجم أن إخلاده لوهن الشيخوخة والاعتكاف فى أعوامه الأخيرة، قد جعل الناس تنساه، وربما قال أكثر من ذلك لو استطاع أن يرى بعين المستقبل كيف سيذكره أو لا يذكره الناس !

كان أستاذ الجيل رائدا بحق من رواد الحركة الوطنية، عمل بالقضاء والمحاماة، ولكنه آثر الانصراف للحركة الوطنية، حارب التبعية والتصق به مبدأ .. " مصر للمصريين "، وتولى رئاسة تحرير الجريدة (١٩٠٦/ ١٩١٤)، وشارك فى تأسيس حزب الأمة، ثم تأليف الوفد المصرى الذى شارك فيه مشاركة فعالة حتى اختلف وآخرون مع سعد زغلول، وتولى دار الكتب المصرية (١٩١٥/١٩١٨)، ومديرا للجامعة المصرية (القاهرة الآن) ثلاث مرات، انتهت كل منها باستقالة مدوية معبرة عن صلابته وانحيازه للحق، لعل أشهرها لدى الناس استقالته احتجاجا على إبعاد طه حسين عن الجامعة إثر كتابه : " فى الشعر الجاهلى " .. حمل حقائب وزارات المعارف والخارجية، وتولى نيابة رئيس الوزراء، وخلال رحلة عطائه الطويلة انتخب عضوا فى مجمع اللغة العربية، ثم رئيسا له

(*) المال ٢٦/٣/٢٠٠٩

من ١٩٤٥ إلى وفاته ١٩٦٣.. وأسهم فى عدة مجامع وجمعيات علمية، وترجم أعمالا لأرسطو منها " كتاب الأخلاق " و " الكون والفساد " عن ترجمة : " بارتلمى سانتهلير، ونشر له كتاب الهلال (أغسطس ١٩٦٣) فصولا من مبادئه بعنوان : " مبادئ فى السياسة والأدب والاجتماع "، ونشر له قبل ذلك سيرته الذاتية " قصة حياتى " .. كانت حياته انحيازا دائما للحرية، وعطاءً متواصلا للأجيال .. فكان من أوائل المبشرين " بالجامعة المصرية " وجعل " الجريدة " مدرسة لتخريج جيل واع من المثقفين الكبار الذين ملأوا الحياة الثقافية والفكرية أمثال : د. محمد حسين هيكل، والشيخ مصطفى عبد الرازق، والشيخ على عبد الرازق، وطه حسين، والرافعى، ومحمد السباعى والد يوسف السباعى، وتوفيق دياب، وعبد القادر حمزة، وإسماعيل مظهر .

لم يبالغ الدكتور عبد العزيز شرف حين أطلق عليه فى الكتاب الذى ألفه عنه أنه " فيلسوف أيقظ أمة " .. كان إلى جوار ما ذكرته لك من رواد الحركة التجديدية التى طورت كتابة المقال الصحفى، وشفت جميع كتاباته فى الجريدة وغيرها أنه كان رائدا سابقا لزمانه، مناديا بالاستقلال والخروج من التبعية التركية، وبإحياء العقل لبناء الشخصية المصرية وحثها على المثل الأعلى فى التربية والتعليم والأخلاق، وتوخى أن يقيم بناءً سياسيا جديداً بدل القديم متأسيا بأرسطو الذى ترجم عدة أعمال له ..

كان ولا يزال بودى أن أنقل لك نماذج من أعمال أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد .. وربما أفعل فى حيز أوسع، ولكنى أحب أن أتوقف معك عند موقفه " الحُرّى " وتقديسه للحرية .. للفرد والوطن .. تراه يحترم بل ويجل البسالة، ولكنه لا يحب لأحد أن يعبد الباسل ــ إن كان باسلا ــ ومهما بلغت بسالته .. ويتخذ من هذا المبدأ : " رفض عبادة الأشخاص " ــ أساسا لحكم الأمم ومجافاة الاستبداد بكل صوره .. فالحكم أيا كان ــ يجب أن يكون لصالح المحكومين، تحكمه نظم قوانين وتشريعات ودستور صادر عن الأمة، وإلا فهو الاستبداد، لأن الدستور هو قوام وأساس وجوهر النظم الدستورية .

فى مقاله الشهير : " عبادة البسالة " (الجريدة عدد ١٩١١/٢/٨)، يقول أستاذ الجيل : " إن العوام تسحرهم قدرة بطل من أبطال الحرب فتعنو لـه وجوههم ويشعرون نحوه بشعور يفسر فى أعمالهم الظاهرة بأنـه العبـادة بعينها . إنهم بذلك يشركون بالله أربابا جددا وهم لا يـشعرون . تأخـذهم عزة ظالم من الظلمة فيكبرونه ويقدسونه ويعينونه على ما هو فيه . بل هم يتزلفون له يرجون رحمته ويخافون عقابه . ذلك بأن الضعف قـد ملـك نفوسهم وأفسد الجهل عليهم نظرهم فى الأشياء، حتى يصبح تقديرهم لهـا تقديرا فاسدا . يرون الأعمال الكبيرة فلا يلحظون فى تقديرها أى معنى من المعانى . لا يلحظون أسبابها ولا نتائجها كأنهم لا يرون فيهـا إلا الجهـة المادية . تنجذب قلوبهم لأعمال الفتك والظلم ولو كانت واقعة عليهم بشرط أن يكون الفتك عظيما هائلا والظلم شنيعا كبيرا "

ويضرب لعبادة " البسالة " هذه أمثلة توضح تأثيرها فى إفساد أخـلاق الأفراد والشعوب فيقول : " من تلك الأمثلة حب الحكومـة الأوتوقراطيـة والرضا ببقائها، لأن الحكومة الأوتوقراطية أساسها ــ كما يقـول علمـاء السياسة ــ عبادة البسالة، أى أخلاق الذل والضعف فى نفوس المحكومين، ومظاهر هذه الأخلاق الفاسدة كثيرة فى ظـل تلـك الحكومـات أبـسطها الإسراف فى التعبير عن الحاكم بالسيد، وعن المحكوم بالعبد، وقلما تجـد شكاية يرفعها فرد من أفراد الأمة المحكومـة بالحكومـة الاسـتبدادية إلا مصدرة بألفاظ العبودية صريحة أو مؤولـة، مختومـة بألفـاظ العبوديـة الصريحة " !

هذا ما قاله أحمد لطفى السيد من قرابة مائة عام، فهل فارقنـا عبـادة الأشخاص، وهجرنا عبارات العبودية والزلفى، واحترمنا قيمـة وحريـة الإنسان ؟!